أثر السنة النبوية في إعداد المعلمين

د . طارق عطيه الدقيج ـ كلية الدعوة الإسلامية وأصول الدين ـ الجامعة الأسمرية

المقدمة:

نهوض الأمة ورقيها معقود بصحة التعليم وجودة التربية، والمناهج العلمية، وطرائق البشر مهما أوتيت من قوة واجتمع لديها من خبرة فإنها تقف عاجزة عن تحقيق الكمالات، ولذا لم تعرف البشرية منذ نشأتها معلما ومربياً أعظم من رسول الله ρ، ولم يحفظ لنا التاريخ سيرة معلم ومربٍّ، كما حفظ لنا سيرة هذا المربي العظيم ρ، حتى شهد بذلك العدو قبل الصديق، فها هو ذا يهودي يعجب من سيرة هذا النبي الأمي، وحسن تعليمه وتربيته لأمته، فيقول لعمر τ والحسد يأكل قلبه: "لقد علَّمكم نبيكم كل شيء، حتى الخراءة -يعني آداب قضاء الحاجة-؟!"..وصدق، فما من خير إلا ودلَّ الأمة عليه، ولا شرّ إلا وحذَّرها منه([1])، لقد كان عليه ρ معلماً ومربياً في آن واحد، ولم يكن يفصل بين التربية والتعليم كما هو حال كثير من المعلمين اليوم، فإن من المهم إدامة النظر والتأمل في الأساليب النبوية في التربية والتعليم، ومع تسليمنا بأن العلماء والباحثين والمفكِّرين في العالم الغربي، قد بذلوا جهودًا كبيرة في استنباط القواعد والنظريات العلمية المتعلِّقة بكثيرٍ من العلوم الإنسانية، إلا أن هذا لا ينبغي أن يكون سببًا لتجاهُلِ الدور الريادي الذي أدَّاه الرسول ρ خاصة والحضارةُ الإسلامية عامة، وسبْقها في التأصيل لكثير من العلوم والمبادئ، ونظرًا لما تمتلكه السنة النبوية من رصيدٍ هائل في مجال الدراسات التربوية وإعداد المعلمين، وإحساسي بضرورة التعريف بهذا التراث العظيم؛ لذا فقد رأيتُ إعدادَ هذه الورقة المتواضعة حول موضوع: "أثر السنة النبوية في اعداد المعلمين"، حيث تكمن أهمية الموضوع في أسلوب الرسول ρ في خلق معلمين وبناء أسس في ذلك نستطيع السير عليها في حاضرنا ومستقبلنا، ومن دواعي كتابتي لهذا الموضوع هو الرجوع إلى الأسس الصحيحة لبناء المعلم النموذج من خلال تتبعنا لسنة الرسول ρ واستنباط التربية العلمية العملية منه، ولقد تم تقسيم البحث إلى الآتي:

هيكل البحث :

المقدمة :

المبحث الأول : التعريف بالسنة النبوية لغة واصطلاحا

المبحث الثاني : إعداد المعلمين في عهد النبي ρ

المطلب الأول : اختيار المعلمين ذوي الكفاءة

المطلب الثاني : الثناء والتشجيع للمعلمين ورفع المستوى التحصيلي

المطلب الثالث : التعرف على قدرات المعلمين

المبحث الثالث: المنهج النبوي في التدرج العلمي

المطلب الأول : لقاءات وابتعاث الرسول ρ للمعلمين

المطلب الثاني: متابعة المعلمين روحيا ومعنويا

المطلب الثالث: كتابة المناهج وتوثيقها في عهده ρ

المطلب الرابع: دور المعلم حاليا

الخاتمة

أهم النتائج

الهوامش

أهم المصادر والمراجع

المبحث الأول ـ التعريف بالسنة النبوية لغة واصطلاحا :

أولا: السنة لغة :

عرف ابن منظور في كتابه (لسان العرب) السُّنَّة لغة بأنها السيرة حسنة كانت أَو قبيحة. قال خالد بن عُتْبة الهذلي: فلا تَجْزَعَنْ من سِيرةٍ أَنتَ سِرْتَها فأَوَّلُ راضٍ سُنَّةً من يَسِيرُها. ([2])

ثانيا ــ السنة اصطلاحا:

تطلق السنة إطلاقا شرعيا ويراد بها على وجه العموم ما أمر به الرسول ε ونهى عنه وندب إليه قولا وفعلا، وهي المصدر الثاني من مصادر الدين الإسلامي بعد القرآن الكريم، ولهذا يقال الكتاب والسنة. أي القرآن والحديث. إلا أن السنة قد تطلق على معان وتفسيرات مختلفة كل حسب التخصص أو الباب التي تطلق فيه ومن هذه الأقسام ما يأتي:

1. السنة عند أهل الحديث والمحدثين: ويراد بها كل ما أثر عن الرسول ε من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة خُلقية أو خِلقية. وهي المرادفة والمقصودة عند ذكر الحديث النبوي.

2. السنة عند علماء أصول الفقه الأصوليين: وهي كل ما صدر عن النبي ε غير القرآن الكريم، من قول أو فعل أو تقرير، مما يصلح أن يكون دليلا لحكم شرعي.

3. السنة في اصطلاح الفقهاء: وهي كل ما ثبت عن النبي ولم يكن من باب الفرض ولا الواجب. ([3])

والمراد بأثر السنة في هذا البحث هو ما يمكن أن نأخذه ونستفيد منه ويكون له وقع على الحالة التعليمية في عصرنا هذا والعصور المستقبلة.

المبحث الثاني ـ إعداد المعلمين في عهد النبي ρ :

مر إعداد المعلمين في عهد النبي ρ بمرحلتين مهمتين تتمثلان في المرحلة المكية والمدنية

المرحلة الأولى ـ مرحلة الإعداد في العهد المكي :

المرحلة المكية تعتبر الفترة الأولى من الدَّعوة الإسلامية والتي تميَّزتْ باتخاذ دار الأرقم بن أبي الأرقم مقرًّا للدعوة، وفي الوقت نفسه تكون مركزًا للإعداد وتأهيل المعلمين؛ ليمارسوا دَوْرَهم التعليمي في نشْر العِلم والمعرفة في شتَّى أرجاء المعمورة، بعد تخرُّجهم واكتمال تعليمهم من قبل الرسول ρ، وقد كان النبي ρ يؤدِّي في هذه المرحلةِ دورَ المعلِّم، بينما يؤدي أصحابُه - رضوان الله عليهم - أدوارَ التلاميذ، حيث كانوا يتعلَّمون منه القرآنَ الكريم، وأصول الدين ومبادئَه، ويتشرَّبون ما يؤهِّلهم لأداء رسالتهم المرتقَبة ، ونجد بعضَ النماذج المتميزة من تلاميذ هذه المدرسة، الذين لم يقتصروا على التلقِّي فحسْبُ في هذه المرحلة ؛ بل بَدؤوا يمارسون مهامَّ تعليميةً خارج الدار كنوعٍ من التربية العملية الميدانية، والاستعدادِ المبكِّر لممارسة عملية التعليم؛ وذلك استجابةً لحاجة الدعوة ومتطلبات المرحلة، التي تقتضي توصيلَ رسالة القرآن إلى كل بيتٍ دَخَلَ أفرادُه في الإسلام، ولم تسمح لهم ظروفُهم بالتردُّد إلى هذه الدارِ، فكان الصحابة ممن رسختْ أقدامُهم في الإسلام، وتلقَّوا نصيبًا أوفرَ من التعليم يزورون مثلَ هذه البيوتِ سرًّا، ويعقدون مع أهلها حلقاتِ تعليم القرآن، على نحوِ ما كان يفعل خَبَّابُ بن الأرَتِّ، الذي ضبطه عمرُ بن الخطاب في بيت أختِه فاطمةَ وزوجِها وهو يُقرِئُهما القرآنَ([4])،ومن النماذج المبكرة التي مارستِ التعليمَ في هذه المرحلة: مصعبُ بن عمير τ الذي بعثه النبيُّ ρ إلى المدينة بعد أن بايَعَ الأنصار البيعةَ الأولى؛ ليعلِّمَهم القرآن، ويدْعوهم إلى توحيد الله ودينه، وكان يُدْعَى المقرئ"([5])، لكن برغم وجود هذه النماذج، فإن السِّمة العامة لهذه المرحلة أنها سمةُ إعدادٍ وتأهيل، وأن دور الصحابة فيها تركَّزَ على جانب التلقِّي والأخْذ من رسول الله ρ وإذا كان لهم نشاطٌ آخرُ، فهو في مجال الدعوة إلى الإسلام والدخول فيه، أما دورهم في التعليم والإقراء، فهو دور محدود؛ ولذلك نقول: إن هذه المرحلةَ تمثِّل (مرحلة تأهيل مبدئي للمعلمين).

المرحلة الثانية ـ مرحلة الإعداد في العهد المدني :

بوصول النبي ρ إلى المدينة، دخلتِ الدعوةُ الإسلامية في طور جديد؛ فقد أسفرتِ الهجرةُ عن قيام الدولة الإسلامية الأولى، وظهرتْ ظروفٌ جديدة، ومهامُّ عديدةٌ للنبي ρ وصحْبِه الكرام، اقتضتْها هذه النقلةُ الحضارية الكبيرة، ومتطلباتُ الدولة الجديدة فقد أصبحتِ الدعوة الإسلامية معنيَّةً بشؤون الجهاد وإصلاحِ المجتمع المسلم، وتحقيقِ الاكتفاء الذاتي، والتعاملِ مع المواطنين غير المسلمين في الدولة

الإسلامية، والعلاقاتِ مع الدول والإمارات المجاورة والبعيدة، وتبلغيها رسالة الإسلام؛ كلُّ هذه الأعباء أُضيفتْ إلى الأعباء الدَّعوية والتربوية والتعليمية التي كان يتحمَّلها النبيُّ ρ حينما كان يعلم أصحابَه ويُهيِّئُهم في مكة، ومن هنا فقد تميزتْ هذه المرحلةُ بأن مهمة التعليم فيها لم تقتصر على النبي ρ وحده؛ بل اشترك معه أو ناب عنه في أدائها كبارُ أصحابه من خريجي دار الأرقم، أو السابقين إلى الإسلام من أهل المدينة؛ ولذلك تمثِّل هذه المرحلةُ مرحلةَ الممارسة الفعلية لوظيفة التعليم، ولعل مصعب بن عمير، من خلال الدور الذي أدَّاه، والذي أشرنا إليه فيما سبق، يمثِّل نموذجًا للرعيل الأول من المعلِّمين الأوائل الذين أعدَّهم النبيُّ ρ وتشرَّفوا بممارسة التعليم والتدريس تحت إشرافه وتوجيهه - عليه الصلاة والسلام -، وقد تزايدتْ أعدادُ المعلمين في هذه المرحلة، وتعدَّدتْ مهامُّهم، وتنوَّعتْ مواقعُهم، فهناك معلِّمون مبتعَثون إلى الأقاليم النائية، كاليمن، والشام، والبوادي وغيرها، وهناك معلمون في داخل المسجد النبوي الشريف، وهناك معلمون في داخل البيوت، ونحو ذلك، وكلُّهم يخضعون للإشراف والتوجيه من قِبَل النبي ρ ويتلقَّوْن منه الإرشادَ والتصويب، في متابعةٍ متكاملة للعملية التعليمية بجميع عناصرها، وما يدل على ذلك ما رواه عبدالله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: خرج رسول الله ρ ذاتَ يومٍ من بعض حُجَره، فدخل المسجد، فإذا هو بحلقتين: إحداهما يقرؤون القرآن ويدْعون الله، والأخرى يَتعلَّمون ويُعَلِّمون، فقال النبي ρ: ((كُلٌّ عَلَى خَيْرٍ؛ هَؤُلاءِ يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ وَيَدْعُونَ اللَّهَ، فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُمْ، وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُمْ، وَهَؤُلاءِ يَتَعَلَّمُونَ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا))، فجلس معهم. ([6])

المطلب الأول - اختيار المعلمين ذوي الكفاءة:

ويتجلَّى ذلك في حديث أنس بن مالك τ قال: جاء ناسٌ إلى النبي ρ فقالوا: أنِ ابعثْ معنا رجالاً يُعلِّمُونا القرآنَ والسُّنة، فبعَثَ إليهم سبعين رجلاً من الأنصار([7])، يقال لهم: القُرَّاء، فيهم خالي حَرَامٌ، يَقرؤون القرآن ويتدارسون باللَّيل يتعلَّمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيَضَعونه في المسجد، ويَحْتَطبون، فيَبيعونه ويَشترون به الطعامَ لأهل الصُّفَّة وللفقراء" وهذا الحديث يكشف لنا عن جانبٍ تعليمي تربوي مهم، لم تفطن له المدارسُ التربوية إلا في وقت متأخر جدًّا، مع أنه عنصر متجذر في التربية الإسلامية، ونعني به الوظيفةَ الاجتماعية للمعلم، بأن يكون له إسهام إيجابي في تقديم الخدمات الاجتماعية، وربط الأسرة بالمدرسة وبالبيئة الاجتماعية المحلية، وهذا ما نجده بوضوحٍ كامل في وصف هؤلاء المعلمين بأنهم: "بالليل يتعلَّمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد، ويحتطبون، فيبيعونه ويشترون به الطعامَ لأهل الصُّفَّة وللفقراء"، ولا يتحقق هذا التفاعلُ الاجتماعي الرائع إلا بممارسة إشرافيه متكاملة، حَظِيَ بها هؤلاء المعلمون على يد مشرفِهم الأول نبيِّنا محمدٍ عليه الصلاة والسلام.

المطلب الثاني ـ الثناء والتشجيع للمعلمين ورفع المستوى التحصيلي:

الثناء والتشجيع وتسليط الضوء على مكامن الكمال في النفس البشرية والإشادة بها منهج نبوي كريم، يراد منه بعث النفس على الزيادة، وإثارة النفوس الأخرى نحو الإبداع والمنافسة، وهو مشروط بأن يكون حقاً، وأن يُؤمِّن جانب الممدوح، وأن يكون بالقدر الذي يحقق الهدف، ونجد ذلك واضحا في أسلوبه ρ، ويتجلى ذلك من حديث أبي هريرة τ حيث قال: يا رسول الله! مَنْ أسعد الناس يوم القيامة؟ قال رسول الله ρ: «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أول منك، لِمَا رأيت من حرصك على الحديث....»([8]). وأيضا عن حذيفة τ قال: جاء أهل نجران إلى رسول الله ρ فقالوا: يا رسول الله! ابعث إلينا رجلاً أميناً، فقال: لأبعثن إليكم رجلاً أميناً حقَّ أمينٍ، قال: فاستشرف لها الناس، قال فبعث أبا عبيدة بن الجراح «وفي رواية» فأخذ بيد أبي عبيدة فقال: «هذا أمين هذه الأمة»([9]).وعن أُبي بن كعب τ قال ρ: «أبا المنذر! أي آية معك من كتاب الله أعظم؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: أبا المنذر! أي آية معك من كتاب الله أعظم؟ قال: قلت {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْـحَيُّ الْقَيُّومُ}([10]) قال: فضرب صدري، وقال: لِيَهْنَ لك يا أبا المنذر العلم»([11])، وعن أبي أيوب τ أن أعرابياً عرض لرسول الله ρ وهو في سفر فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها، ثم قال: يا رسول الله! أو يا محمد! أخبرني بما يقربني من الجنة وما يباعدني من النار. قال: فكفَّ النبي ρ ثم نظر في أصحابه، ثم قال: «لقد ـ وُفِّق أولقد هُدي» ثم يُقبل عليه النبي ρ ويقول : كيف قلتَ؟...الحديث»([12])، فمن خلال هذه الأحاديث ننظر كم يبعث التشجيع في نفس المتعلم من حب للعلم، وكم يساعد في تسارع خطوات التربية نحو الأمام، وذلك على عكس ما يأتي به كثرة التأنيب والعتاب واللوم، أو السكوت عن الثناء عند كل نجاح وتفوق، والثناء والتشجيع قد يستفاد منه في تدعيم سلوك معين أو التوجيه إلى عمل مهم يحسن اكتسابه فعند الإمام مسلم من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما- في الرؤيا التي رآها فقصها على أخته حفصة ـ رضي الله عنها فقصتها على النبي ρ فقال: «نِعْمَ الرجل عبد الله لو كان يقوم من الليل»([13]). فيا ترى ما أثر ثناء النبي ρ على ابن عمر τ؟ وفي قصة سلمة بن الأكوع τ في (ذي القرد) لما رجعوا قافلين إلى المدينة بعد أن أبلى سلمة τ بلاءً حسناً، ثم ناموا في الطريق قال سلمة τ فلما أصبحنا قال رسول الله ρ خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالتنا سلمة قال ثم أعطاني رسول الله ρ سهمين: سهم الفارس وسهم الراجل، فجمعهما لي جميعاً، ثم أردفني رسول الله ρ على العضباء راجعين إلى المدينة»([14]) تأمل هذه الحادثة، وكم فيها من الثناء والتشجيع وتقدير الكفاءات. ففي قوله: «وخير رجالتنا سلمة» إعلان للتكريم أمام مجمع من الصحابة. ثم إن في إعطائه سهمين مكافأة أيضاً وتقديراً لجهوده، ثم في إرداف النبي ρ له على الدابة زيادة في التكريم والتقدير له، ولك أن تتصور مقدار التكريم حين يُركبك القائد معه في مركبته الخاصة تسير بصحبته أمام الناس كم سيضاعف هذا

الثناء والتقدير من نشاطٍ في نفس سلمة أو أبي قتادة رضي الله عنهما، بل كم سيحرك في نفوس الآخرين حين يكون المدح في محله!

إن كثيراً من القدرات، وكثيراً من أصحاب الكفاءات يصابون بالضمور، بل ربما يموتون وتموت مواهبهم وقدراتهم؛ لأنهم لا يجدون من يدفعهم بكلمة ثناء، أو يرفعهم بعبارة تشجيع، إننا حين نثني على أصحاب القدرات لسنا نحفظ ونضمن جهد المجتهد منهم فحسب، بل إننا نحرك نفوساً ربما لا يحركها أسلوب آخر.

المطلب الثالث ـ التعرف على قدرات المعلمين:

وخير مثال على ذلك ما سبق تناوله من حديث أبي بن كعب في المطلب السابق، وأن سؤال النبي ρ لهذا الصحابي ليس سؤالاً من أستاذ لتلميذ فحسْبُ، وإنما هو سؤال مشْرِف لمعلِّم؛ نظرًا للمكانة العلمية التي كان يتمتع بها هذا الصحابيُّ أبي بن كعب، باعتباره أحدَ القراء المعدودين الذين جمعوا القرآن على عهد النبي ρ وكونه أحدَ كتاب الوحي، وتولى مهمة الإفتاء والتعليم في حياته، ولهذا يعقِّب النووي ـ رحمه الله ـ في شرحه لصحيح مسلم على هذا الحديث بقوله: "فيه منقبةٌ عظيمة لأُبيٍّ، ودليلٌ على كثرة عِلمه، وفيه تبجيلُ العالمِ فضلاءَ أصحابه وتكنيتهم، وجوازُ مدح الإنسان في وجهه إذا كان فيه مصلحة، ولم يُخفْ عليه إعجابٌ ونحوه؛ لكمال نفسه ورسوخه في التقوى"([15])وإذا كان علماء التربية يُوصُون المشرفين التربويين بضرورة تشجيع المعلِّم، ورفعِ روحه المعنوية، وتعزيزِ ثقته بنفسه، فإن نبيَّنا عليه الصلاة والسلام كان أسبْقَهم إلى مراعاة هذا الجانب وتطبيقه على أرض الواقع.

المبحث الثالث ـ المنهج النبوي في التدريج التعليمي:

كان التشريع الذي نزل من عند الحكيم الخبير، يرعى التدرج وتمرين الناس على قبول الشرائع وترويضهم عليها؛ حيث خوطب الناس ابتداءً بالأهم فالأهم، فكان التأكيد أولاً على تحقيق التوحيد، حتى إذا استقرت نفوسهم أمروا بالفرائض ثم سائر الشرائع والأحكام، تقول عائشة ـ رضي الله عنها «إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصَّل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر؛ لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا؛ لقالوا: لا ندع الزنا أبداً..» ([16]) الحديث كذا كان المنهج النبوي في تعليمه وتربيته يقوم على التدرج ومراعاة الحال، روى ابن ماجه عن جندب بن عبد الله τ قال: «كنا مع النبي ρ ونحن فتيان حزاورة، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن، فازددنا به إيماناً»([17])،كم نستعجل أحياناً في تعليم القرآن (حفظه) للأبناء والتلاميذ قبل تثبيت الإيمان في نفوسهم، كم رأينا ممن قارب إتمام القرآن حفظاً فانقطع وتغير سلوكه؛ لأن بناء الإيمان لم يتزامن مع الحفظ، وإني بهذا الكلام أؤكد دور التربية والبناء الإيماني، ولا أقلل من أهمية الحفظ، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما في بعث النبي ρ معاذاً إلى اليمن قال: إنك

ستأتي قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؛ فإن هم أطاعوا ذلك فأعلمهم أن الله افترض..... الحديث»([18]) وإن من التدرج ومراعاة الحال في التربية والتعليم عدم تقديم ما حقه التأخير، وأن يُخَصَّ بالعلم أناسٌ دون غيرهم مراعاةً للمفهوم وتقديراً للمصالح، روى البخاري في صحيحه قال: (باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا) وذكر تحته حديث أنس τ قال: ذُكِر لي أن النبي ρ قال لمعاذ: «من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة» قال: ألا أبشر الناس؟ قال: لا؛ إني أخاف أن يتكلوا»([19]).

قال العيني - رحمه الله -: (وفي الحديث بيان وجوب أن يُخَصَّ بالعلم الدقيق قومٌ فيهم الضبط وصحة الفهم، وأن لا يُبذل لمن لا يستأهله من الطلبة ومن يخاف عليه الترخص والاتكال لتقصير فهمه)، وروى البخاري في صحيحه عن علي بن أبي طالب معلقاً قال: حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله ρ([20]) وروى مسلم عن عبد الله بن مسعود τ قال: «ما أنت محدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة».([21])

إن عملية التعليم والتربية ليست عملية استعراض يستعرض فيها المربي أو المعلم معلوماته، إنما هي صياغة متكاملة تحتاج في أولها إلى الأسس والمبادئ التي تصح بها النهايات وتكتمل، وكما قال شيخ الإسلام: (صحة البدايات تمام النهايات)وهكذا كانت طريقة الربانيين الذين امتدحهم الله فقال: {وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ}([22]) قال البخاري: قال ابن عباس τ: (الرباني هو الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره). ومما يدخل في مراعاة حال المتعلم أو المتربي إعطاء كل مرحلة ما يناسبها من العلم والتربية فإن لكل مرحلة عمرية درجة من النضج، يصعب تجاوزها، كما أن لها مشكلات لا يمكن حلها إلا على نحو جزئي، ولذا فإن العجلة هي العدو الأول للتربية وهناك جوانب عديدة في شخصياتنا، لا ينضجها إلا الزمن.

المطلب الأول ـ لقاءات وابتعاث الرسول ρللمعلمين :

ومن الأمثلة على ذلك: لقاءُ النبيِّ ρ مع مصعب بن عمير في بَيعة العقبة الثانية بعد عامٍ من بعثته إلى المدينة، حيث كان برفقته اثنان وسبعون رجلاً وامرأتان من الذين أسلموا وتعلَّموا على يديه، فكان ذلك تقريرًا عمليًّا رفَعَه هذا المعلِّمُ المتميِّز إلى مشْرفه العظيم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وقد يَحدُث بعد هذه اللقاءاتِ إذا حقَّق الصحابيُّ (المعلم) نجاحًا في مهمته، أن يعيد النبيُّ ρ ابتعاثه إلى مكانٍ آخرَ؛ ليقدِّم لأهله ما يحتاجون إليه من تعليمٍ وإرشاد وتثقيف، كما في حالة معاذ بن جبلτ الذي استخلفه النبي ρعلى مكةَ عامَ فتحِها مع عَتَّاب بن أَسِيد (الوالي عليها)؛ ليعلِّم أهلَها، فجاء معاذٌ بعد أداء مهمته إلى النبي ρ فكان معه في غزوة تبوك، ثم بعثه النبيρ إلى اليمن بعد ذلك. ([23])

المطلب الثاني ـ متابعة المعلمين وتربيتهم روحيًّا وإيمانيًّا:

من مظاهر العمليَّة التعليمية الإشرافية التي كان النبي ρ يؤديها تجاه أصحابه (المعلمين) عنايتُه بترقية حسِّهم الإيماني، وتعميقِ جانب الإخلاص لله ـ تعالى ـ وابتغاء رضوانه فيما يقومون به من مهامِّ التعليم والتدريس؛ ولذلك فقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ حريصًا أشدَّ الحرص على ترسيخ عنصر الإخلاص ومراقبة الله ـ تعالى ـ في نفوس أصحابه، وعدم ترك النَّزَعات المادية والأهواء تتسلَّل إلى نفوسهم وتسيطر عليهم.

ولذلك نجده ρ يَنهى أصحابَه عن أخْذ أجرٍ مادي في مقابل ما يقومون به من تعليمٍ للقرآن الكريم؛ ليبقى عملُهم خالصًا لوجه الله تعالى ويجدوا ثوابه عنده كاملاً يوم القيامة، وفي ذلك يروي عبادةُ بن الصامتτ قائلاً: علَّمتُ ناسًا من أهل الصُّفَّةِ الكتابَ والقرآن، فأهْدَى إليَّ رجلٌ منهم قوسًا، فقلتُ: ليستْ بمالٍ وأرمي عنها في سبيل الله ـ عز وجل ـ لآتينَّ رسولَ الله ρ فلأسألنَّه، فأتيتُه فقلتُ: يا رسول الله، رجلٌ أهدى إليَّ قوسًا ممن كنتُ أعلِّمُه الكتابَ والقرآن، وليستْ بمالٍ، وأرمي عنها في سبيل الله، قال: ((إن كنتَ تُحبُّ أن تُطوَّق طوقًا من نارٍ، فاقْبلْها)) ([24]).

وقد كان هذا الحديث مثارَ جدلٍ واسع بين العلماء حول حُكم أخْذ الأجرة على التعليم، حيث "ذهب بعضهم إلى ظاهِرِه، فرأَوْا أن أخْذ الأجرة على تعليم القرآن غيرُ مباح، وإليه ذهب الزهريُّ([25]) وأبوحنيفة وإسحاق بن راهويه([26])، وقال طائفة: لا بأس به ما لم يَشْتَرِطْ، وهو قول الحسن البصري([27]) وابن سيرين([28]) والشعبي([29])، وأباح ذلك آخرون، وهو مذهب عطاء([30]) ومالك والشافعي وأبي ثور([31])"([32]).

ولا يتَّسع لنا المجالُ لمناقشة كلٍّ مِن هؤلاء في أدلتهم وحُججهم، ولكننا هنا نشير إلى أن هذا التوجيهَ النبويَّ الكريم بمنْع الصحابي المعلِّمِ من أخْذ هديةٍ في مقابل قيامه بواجب التعليم، إنما هو نابعٌ من الفلسفة العامة التي كان يسير عليها المجتمعُ الإسلامي في ذلك الوقت، والمتمثِّلة في تقديم الهدف الأخروي على الهدف الدنيوي في جميع الحركات والسكنات، وهذا يتَّسق مع طبيعة الإشراف التربوي في مفهومه الحديث، حيث "يستمدُّ الإشرافُ فلسفتَه من فلسفة وأهداف المجتمع الذي يمارسه؛ فهو تعبير عن حياة المجتمع والمُثُلِ السائدة فيه"([33]).

فهذه بعضُ النماذج التي تكشف عن الوظيفة الإشرافية التي كان النبيُّ ρ يمارسها على المعلمين من أصحابه؛ بهدف الارتقاء بمستوياتهم العلمية، وتحسينِ أساليبهم التعليمية، وتعديلِ معاملاتهم السلوكية وبالنظر إلى واقع العملية التعليمية في عهده ρ نجد أن الغرض التربويَّ الأول والأساس، الذي يسعى المعلمون إلى تحقيقه من وراء نشاطِهم التعليمي هو الجانبُ الإيماني المتمثِّل في فهْم تعاليم الإسلام فهمًا

صحيحًا، والعمل على تطبيقها تطبيقًا كاملاً في حياتهم العملية بمجالاتها المختلفة، ولهذا فإن دراسة القرآن الكريم والسنة النبوية هي الوسيلة الأولى لتحقيق هذا الهدف، وبالتالي فإنها هي الإجابة المنطقية للسؤال الذي يدور حوله المنهجُ التعليمي: "ماذا تعلِّم المدارس ؟" ومن هنا نجد أن محتوى المنهج التعليمي في عهد النبي ρ كان يقوم على هذين العنصرين: القرآن والسنة؛ كما جاء في حديث أبي موسى الأشعري τ: "أن رسول الله ρ بعث مُعاذًا وأبا موسى إلى اليمن، فأمَرَهما أن يُعلِّما الناسَ القرآنَ"([34])

المطلب الثالث ـ كتابة المنهج وتوثيقه:

بالرغم من المفهوم السائد لدى كثيرٍ من الناس من أن فكرة الكتابة والتدوين لم تكن مستعملةً بصورة واضحةٍ في العصر الإسلامي الأول، فإننا نجد أدلةً تشير إلى أن النبي ρ قد اهتمَّ بجانب إعداد المناهج التعليمية، وسن كتابتها وتدوينها؛ لتكون نبراسًا يسير عليه المعلِّمون في سبيل إنجاح عمليتهم التعليمية على الوجه الأكمل، ويبدو أن كتابة المنهج التعليمي جاءتْ في مرحلة متأخرة من حياته ρ اقتضتْها ظروفُ المرحلة وتطوراتُ الحياة، حيث لم تَعُدِ التعليماتُ الشفهية تكفي لتلبية متطلبات العملية التعليمية التي كان يقوم بها أصحابُه المعلمون المبتعثون إلى الأماكن النائية، ولعلهم من خلال بعثاتهم السابقة اكتشفوا وجودَ بعض الظواهر والمستجدات التي تستدعي إعدادَ منهجٍ مكتوب؛ ليسير عليه المعلمون في عملهم العلمي، دون أن يحتاجوا إلى الرجوع إلى النبي ρ في كل ما يطرأ لديهم من الأمور والمستجدات، خاصة مع بُعْدِ المسافات، وصعوبة المواصلات في ذلك الوقتوخيرُ مثالٍ للمنهج التعليمي المكتوبِ في عهده ρ هو هذا الكتاب الذي كَتَبَه رسولُ الله ρ لعمرو بن حزمٍ τ حين بَعَثَه إلى اليمن يُفقِّه أهلَها، ويعلِّمهم السُّنةَ، ويأخُذ صدقاتِهم، فكتب له كتابًا وعهدًا، جاء فيه ما يلي:

((بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من الله ورسوله؛ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ}([35]) عهدٌ من رسول الله ρ لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن، أمَرَه بتقوى الله في أمْره؛ فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأمره أن يأخذ الحق كما أمره الله، وأن يبشِّرَ الناس بالخير ويأمُرَهم به، ويعلِّم الناس القرآن ويفقههم فيه، وينهى الناس، ولا يمس أحدٌ القرآنَ إلا وهو طاهر، ويخبر الناس بالذي لهم والذي عليهم، ويلين لهم في الحق، ويشد عليهم في الظلم، فإن الله ـ عز وجل ـ كره الظلم ونهى عنه؛ وقال: {أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}([36])، ويبشِّر الناسَ بالجنة وبعملها، ويُنذِر الناسَ النارَ وعملها، ويستألف الناس حتى يفقهوا في الدِّين، ويعلِّم الناسَ معالمَ الحج وسُننَه وفرائضه، وما أمر الله به، والحج الأكبر والحج الأصغر.

وبشكل عام فإن النظرة الحديثة للمعلم تتمثل باعتباره معلم تراث ، معلم قدوة ويمثل دعامة أساسية من دعامات الحضارة فهو صانع أجيال وناشر علم ورائد فكر ومؤسس نهضة وإذا كانت الأمم تقاس برجالها فالمعلم هو باني الرجال وصانع المستقبل ، ولا عجب إذ ينادي رفاعة الطهطاوي بأن المعلمين هم خير من يمشي على تراب الأرض .

المطلب الرابع ـ دور المعلم حاليا :

يمثل المعلم في العصر التربوي الحديث عدة أدوار تربوية اجتماعية تساير روح العصر والتطور، فمع ما نراه الأن من قلة الإمكانيات والظروف التي يمر بها المعلم حاليا وخاصة مع غياب الرقابة الإدارية نستطيع القول بأنه يجب عليه أن يمثل أدواره على أكمل وجه وسأذكر في هذا المطلب تلك الأدوار .

1- دور المعلم كناقل معرفة :

في هذا الدور لم يعد المعلم موصلاً للمعلومات والمعارف للطلاب ولا ملقناً لهم ، لقد أصبح دور المعلم في هذا المجال مساعداً للطلاب في عملية التعلم والتعليم ، حيث يساهم الطلاب في الاستعداد للدروس والبحث والدراسة مستنيرين بإرشادات وتوجيه معلمهم الكفء الذي يعي الأساليب التقنية وتكنولوجيا التعليم ولديه القدرة والمهارات الهادفة في معاونة الطلاب على توظيف المعرفة في المجالات الحياتية المتنوعة هذا إضافة إلى قدرة المعلم على صياغة الأهداف الدراسية والتربوية والعمل على تحقيقها من خلال الدرس والحصة والنشاطات الصفية واللا صفية ، لذا فإن المعلم في هذا المجال يحتاج إلى التطور والتجدد باستمرار ليحقق الأهداف([37])التعليمية التعلمية.

2- دور المعلم كخبير وماهر في مهنة التدريس والتعليم :

يجب أن يسعى المعلم دائماً للنمو المهني والتطور والتجديد في مجال الاطلاع على خبرات المهنة الحديثة والمتجددة كما ويجدر به ويتطلب منه أن يعي الأساليب والتقنيات الحديثة ليقوم بنقل الخبرات المتطورة إلى طلابه بشكل فعال وإيجابي ، كما ويطلب منه أن يكون عصرياً في توظيف تكنولوجيا التعلم والتعليم المبرمج والأجهزة الإلكترونية الأخرى، ومتجدداً ومسايراً لروح العصر في أساليبه ومهاراته التعليمية ليستطيع بالتالي من المساهمة الفعالة في تحقيق الأهداف السلوكية التربوية المرجوة ([38]).

3- دور المعلم كمسؤول عن مستوى تحصيل الطلاب وتقويمه :

إن مستوى التحصيل الجيّد في المجالات التربوية المتنوعة معرفية و وجدانية و مهارية يعتبر هدفاً مرموقاً يسعى المعلم الناجح لمتابعته وتحقيقه مستخدماً كل أساليب التقنية وتكنولوجيا التعليم في رعاية مستوى تلاميذه التحصيلي على مدار العام الدراسي بل والأعوام الدراسية وذلك في مجال ما يدرسه من مناهج ومقررات . فالمعلم الناجح هو الذي يوظف اللوائح المتعلقة بتقويم الطلاب في المجالات المعرفية والوجدانية والمهارية بشكل موجه وفعال ويلزمه في هذا المجال فتح السجلات اللازمة لتوثيق درجات الطلاب حسب التعليمات هذا إضافة إلى فتح السجلات التراكمية لمتابعة سلوك الطلاب وتقويمه كما ويتطلب منه أيضاً وضع الخطط اللازمة لمعالجة حالات الضعف وحفز حالات التفوق.

كما أن على المعلم في هذا المجال ، القيام بأبحاث ودراسات إجرائية لحالات التأخر في مجالات التحصيل المعرفي أو المجالات ا لسلوكية الأخرى متعاوناً بذلك مع زملائه وإدارة المدرسة ومع الأسرة([39]).

وتجدر الإشارة في هذا المجال أن يتبع المعلم الأساليب المتطورة والحديثة في مجالات القياس والتقويم ويجب أن يكون المعلم حاكماً نزيهاً وقاضياً عادلاً في تقويمه لطلابه .

4- دور المعلم كعضو في مهنته :

لا بد من انتماء المعلم للمهنة التي يعمل بها فينظم إلى نقابتها ويحافظ على شرفها وسمعتها ، ويسعى على الدوام بأن ينمو ويتطور من خلال جمعيات المعلمين ونقاباتهم لأن هذه المؤسسات تسعى دائماً لتطوير وتجديد منتسبيها من المعلمين من خلال اللقاءات والندوات والنشرات، كما أن المعلم في هذا الدور مطالب بالمساهمة في نشاط هذه المؤسسات والجمعيات لما له من مردودات إيجابية في مجال النمو المهني ([40]).

الخاتمة :

فهذه نبذة عن عناية النبي ρ بالعلم والمعلمين والتطوير العلمي أيضا في إطار ممارسته لوظيفته الإشرافية على المعلمين الذين اختارهم على مسار العمل التعليمي المتبع في عهده ρ واعطاء الجزيرة العربية مكانة لم تعهد عليها من قبل، فيجب علينا الاستفادة من تلك التوجيهات النبوية في استخراج معلمين يحملون راية العلم بكل ضمير وتطبيق المعايير الصحيحة في اخيار المعلم النموذج لخدمة ديننا ووطنا وانتاج جيل قادر على تحمل المسؤولية التي ستلقى على عاتقه وكذلك يجب النظر إلى تطوير المعلم والاهتمام به والرقي به إلى العالمية من خلال تتبع التطوير العالمي في هذا النهج.

أهم النتائج:

1- وجود دعوات ضالة كانت وما زالت تنادي بضرورة نقل أسلوب التعليم والتربية من الغرب العلماني أو الياباني الوثني دون نظرٍ إلى المبادئ والقيم والثوابت الشرعية ولا شكأننا قد نستفيد منهم في بعض الوسائل والطرائق في توصيل المعلومة مثلاً والتي اعتمدوا فيها على تجارب ودراسات وجهود مضنية وافقوا فيها الصواب في أحيانٍ كثيرة، أما أن نأخذ ما نزاحم به ثوابتنا وقيمنا فلا يصح أن نختلف في رده والوقوف أمامه، إن من المحزن المبكي أنك تجد دول الغرب تحامي عن مبادئها، وتخشى على قيمها، بينا ترى أهل الإسلام أهل الملة الخالدة يبقون وكأن العبث بالثوابت لا يعنيهم، أوَليس هو شيئاً ذا بالٍ في نظرهم.

2- سبْقُ معلِّم البشرية النبيρ في تأصيل وتطبيق عمليات الإشراف التربوي، وريادته في هذا المجال، بصورة ينبغي أن يهتدي بها علماءُ التربية في سبيل تحسين العملية التعليمية والارتقاء بها.

3- عرفت مسيرة إعداد المعلمين في العهد النبوي بمرحلتين: أولاهما مرحلة إعداد المعلمين في العهد المكي، والمرحلة الثانية كانت مرحلة إعداد وتأهيل المعلمين في العهد المدني.

4- شملتِ العملية الإشرافية في عهد النبي ρ جوانبَ متعددةً، منها: اختيار المعلمين وتعديلُ سلوكهم، وتطويرُ المنهاج.

5- كان الإعداد الذي مارَسَه النبي ρ منسجمًا مع التصور الإسلامي لما ينبغي أن يكون عليه المجتمعُ المسلم، كما كان ملبيًا لكل متطلبات العملية التعليمية، كما تقتضيها الحياةُ الاجتماعية والتطورُ الحضاري والعلمي في تلك المرحلة.

6- واصَلَ الصحابة - رضوان الله عليهم - جهودَهم التعليمية التي بدؤوها على يد معلمهم النبي ρ ولم تكن ممارسة الإعداد على المعلمين مقصورةً على الخلفاء وحدهم في العهد الراشدي؛ بل كان كبار الصحابة - رضوان الله عليهم - يقومون بأداء هذه المهمة، بحسب مواقعهم والظروف المحيطة بهم.

هوامش البحث :

[1]. مسلم، صحيح مسلم، باب الاستطابة، ج1، ص223، حديث رقم .262

[2]. لسان العرب، ابن منظور ج 13، ط الأولى، دار صادر، بيروت، ص 220.

[3]. أصول الحديث علومه ومصطلحه، الدكتور محمد عجاج الخطيب، دار الفكر، بيروت، ص13 ، 14.

[4]. السيرة النبوية ، ابن هشام ج 1، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد، ط 1، 1411هـ، دار الجيل، بيروت، ص 343

[5]. معرفة الصحابة ، الأصبهاني ج 18، تحقيق عادل بن يوسف العزازي، ط 1419هـ، دار الوطن - الرياض، ص 5

[6]. ابن ماجة، سنن ابن ماجة، ج1، ص 155، حديث رقم 229

[7]. مسلم، صحيح مسلم، باب ثبوت الجنة للشهيد، ج3، ص 1511، حديث رقم : 677.

[8]. البخاري، صحيح البخاري، ج8، ص 117، حديث رقم 6570

[9]. آل عمران، الآية 2.

[10]. أبو داود، سنن أبي داود، باب ما جاء في آية الكرسي، ج1، ص545، حديث رقم 1462

[11]. صحيح مسلم، كتاب الايمان، ج1، ص42، حديث رقم 13

[12]. صحيح البخاري، باب فضل قيام الليل، ج2، ص49، حديث رقم 1122

[13]. شرح النووي على صحيح مسلم"، ج 3، ص 164.

[14]. البخاري، باب تأليف القران، ج6، ص185، حديث رقم 4993

[15]. ابن ماجة، باب الايمان، ج1، ص42، حديث رقم 61.

[16]. البخاري، باب وجوب الزكاة، ج2، ص 104، حديث رقم 1395.

[17]. البخاري، باب أخذ الصدقة من الأغنياء فترد في الفقراء حيث كانوا، ج2، ص 128، حديث رقم 1496.

[18]. البخاري، باب من خص بالعلم قوم دون قوم، ج 1، ص 36، حديث رقم 127

[19]. صحيح مسلم، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، ج1ن ص 11، حديث رقم 5

[20]. آل عمران، الآية 79

[21]. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين: "دلائل النبوة"، ج 6، ط 2، 1418هـ، تحقيق عبدالرحمن محمد عثمان، دار الفكر - بيروت، ص 3.

[22]. سنن ابي داود، باب في كسب المعلم، ج3، ص 276، حديث رقم 3418

[23]. هو ابن شهاب الزهري محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب توفي سنة 124هـ، من الطبقة الرابعة من التابعين، فقيه حافظ محدث ومؤرخ، من أشهر تلاميذه مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح، ومالك بن أنس صاحب المذهب.

[24]. هو إسحاق بن راهويه الحنظلي التميمي، توفي سنة 238هـ، شيخ المشرق، وسيد الحفاظ، درس على الشافعي، ومن تلاميذه البخاري صاحب الصحيح، والترمذي والنسائي، وغيرهم.

[25]. هو الحسن بن يسار البصري، توفي سنة 110هـ،محدث وقاضي، درس على الصحابي أنس بن مالك، ومن أشهر تلاميذه واصل بن عطاء.

[26]. هو أبو بكر محمد بن سيرين البصري التابعي، الإمام المشهور في التفسير والحديث، وتعبير الرؤيا، توفي سنة 110هـ، بعد الحسن البصري بمائة يوم.

[27]. هو عامر بن شراحيل الهمداني الشعبي، تابعي فقيه محدث، توفي سنة 100هـ، من طلابه الإمام أبو حنيفة النعمان صاحب المذهب.

[28]. هو أبو محمد عطاء بن أبي رباح، فقيه وعالم حديث، أخذ العلم من عائشة وعبد الله بن عباس وغيرهما، ومن تلاميذه الأوزاعي، وأيوب السختياني، توفي سنة114هـ,

[29]. هو إبراهيم بن خالد الكلبي البغدادي، من فقهاء بغداد وصاحب الإمام الشافعي، توفي سنة 246هـ.

[30]. عون المعبود شرح سنن أبي داود"، ج 7، ص 404.

[31]. د أحمد عمر: "مذكرة في الإشراف التربوي"، مقدمة لطلاب فرقة الماجستير بمعهد الخرطوم الدولي للغة العربية، عام 2005، مطبوعة على الحاسوب، ص 2.

[32]. الإمام أحمد ، مسند الإمام أمحمد، ج32، ص 315، حديث رقم 19544

[33]. البخاري، صحيح البخاري، باب ما يكره من التنازع والاختلاف ج4، ص 65، حديث رقم 3036

[34]. المائدة، الآية 1

35. هود، الآية 18

36 . محمد عبدالله البيلي: علم النفس التربوي وتطبيقاته. ط1، 1417هـ/ 1997م، مكتبة الفلاح -العين.

37. محمود أحمد موسى : " المعلم : أنماطه وأدواره في التراث والتربية الحديثة " . ص51 ، مجلة الدراسات التربوية ، العدد الثاني ، 1987/1986م ، منطقة العين التعليمية .

38. محمود عبدالقادر علي قراقزة : مهنتي كمعلم . ط1 ، 1416هـ /1996 م ، الدار العربية للعلوم -لبنان .

39.) محمود عبدالقادر علي قراقزة : نحو ميادين وفعاليات تربوية معاصرة . ط1، 1408هـ / 1988م ، مكتبة العلا- الشارقة ، دار العودة - دبي ، ص 98.

40. المرجع السابق، ص 122